قضية الأصالة والمعاصرة ومواجهتها عند نجيب محمود ومحمود حمدي زقزوق

الباحث/ أحمد محمد عبدالرازق بندارى

الملخص

يؤكد محمود زقزوق على أنه لا يجوز التعامل مع التراث على أنه أساس الدين، وإحاطته بهالة من التقديس، كما أنه لا يجوز بحال من الأحوال القطيعة مع التراث .

ثم يشير إلى أن التراث جهد بشرى يخطئ ويصيب، ولا يجوز الخلط – بأي حال من الأحوال – بين التراث والقرآن الكريم والسنة النبوية المقطوع بصحتهما، فهذان هما الأصلان اللذان يقوم عليهما الإسلام، ولا يجوز الخلط بينـــهما، التراث الذى هو جهد بشرى خالص، ومن هنا فإنهما لا يندرجان تحت مفهوم التراث بأي حال من الأحوال، ولكن هناك من يخلط بينهما وبين التراث، سواء أكان ذلك بقصد أم دون قصد.

Summary

Mahmoud Zaqzouq stresses that it is not permissible to deal with heritage as the basis of religion, and to surround it with an aura of reverence, just as it is not permissible in any way to break with heritage.Then he points out that heritage is a human effort that errs and errs, and it is not permissible to confuse – in any way – between heritage and the Noble Qur'an and the Prophet's Sunnah, which are definite in their validity, as these are the two principles on which Islam is based, and it is not permissible to confuse them, the heritage that is a pure human effort, and hence They do not fall under

the concept of heritage in any way, but there are those who confuse them with heritage, whether intentionally or unintentionally.

المقدمة

و تعد قضية الأصالة والمعاصرة من أبرز القضايا التي كانت محل دراسة واهتمام العديد من المفكرين العرب،وعلى رأس هؤلاء علمين من أعلام الفكر العربى والمعاصر أحدهما زكى نجيب محمود ، ومحمود حمدى زقزوق وقضية الأصالة والمعاصرة ليست حديثة بل طرحت أيصا قديماً، فالأصالة تدعو إلى التمسك بالماضي وبما يحويه من تراث ووجوب المحافظة عليه لأنه أساس كل أمة وحضارة، فكل حضارة تعرف من خلال تراثها، في حين تسعى المعاصرة إلى مسايرة العصر الراهن ومواكبته، وبهذا يتسنى لنا معايشة الواقع والتكيف معه. جاء هذا البحث في تناول أولاً: مفهوم الأصالة والمعاصرة في فكر كل من زكى نجيب محمود ومحمود زقزوق والفكر العربي المعاصر كما تعتبر إشكالية الأصالة والمعاصرة من أهم الإشكاليات التي أثارت جدلا واسعا في الفكر العربي المعاصر. – من بين المفكرين الذين كانت لهم المساهمة في التطرق لإشكالية الأصالة والمعاصرة نجد أن كل من زكى نجيب محمود ومحمود زقزوق و الذان كان لهما حضور متميز في الفكر العربى . فزكى نجيب محمود من أبرز المفكرين الذين أولوا التراث أهمية ومكانة متقدمة في دراساتهم ، وهو الذى خصص جل وقته في أواحر حياته لدراسة هذا الكم الهائل من العلم في سبيل إيجاد الحل الذى استعصى عليه وعلى من قبله من المفكرين ، فالمشكل تجلى في "كيف السبيل إلى ثقافة موحدة

متسقة يعيشها مثقف حى في عصرنا هذا ، بحيث يندمج فيها المنقول والأصل في نظرة واحدة " (١) .

لذلك نادى بضرورة دراسة الفكر العربى القديم والفكر الإسلامى عموماً من أجل تحقيق فلسفة ذات طابع عربى متميز الأصل مختلف عن الفكر الغربى ، لذا حاول بناء أساس متين لإقامة ثقافة عربية تحافظ على الأصالة من جهة وتساير العصر التكنولوجى من ناحية أخرى .

أما محمود زقزوق فيشير إلى أن المسلمون اليوم فى محاولتهم للنهوض واللحاق بركب الحضارة فهم فى حاجة ماسة إلى التعرف على منجزات العصر بعيون ناقدة ، ومراجعة تراثنا مراجعة دقيقة بهدف وصل ما انقطع بينه وبين تطورات العصر .وها نحن نحاول أن نلقى الضوء على قضية الأصالة والمعاصرة عند كل منهما

أولاً : موقف زكى نجيب محمود من التراث والمعاصرة

إن حياتنا الفكرية منذ أوائل القرن الماضي قد تأثرت تأثراً بعيد المدى بذلك الصدام الفكري ،أو بالأحرى اللقاء الحضاري الذى تم بيننا وبين الحضارة الغربية إثر الغزو الإستعماري لبلداننا العربية ، وقد أصبح أحد هموم الإنسان العربى منذ اتصلت الأواصر بيننا وبين الغرب الحديث هو كيف يمكنه التوفيق بين تلك العلوم الحديثة وذلك التقدم الهائل الذى أنتجه الغربيون ، وبين تراثنا الفكرى الذى يكن له كل التقدير ، ويعتبره جوهر شخصيته وحصنه الحصين الذى يحتمى به (٢)

وإذا نظرنا إلى النخبة المثقفة من أبناء الأمة العربية والإسلامية وإلى اتجاهاتهم حول هذه الإشكالية وجدناهم ينقسمون إلى ثلاثة فرق ، كل فريق يتخذ موقفاً مغايراً للفريق الآخر ،مقدماً الحجج والبراهين التي تثبت صحة موقفه ، وأن يلتمس الطريق للخروج من هذه الإشكالية .

الفريق الأول : آثر أن يتمسك بالتراث ، ويتحصن ويحتمى به ، ويتخذ منه سلاحاً أيديولوجياً يواجه به التحدي الغربي ممثلاً في علومه وفلسفاته المتقدمة .

الفريق الثاني : وقف هذا الفريق موقف الرافض لترثنا الفكري، وجعل شغله الشاغل حضارة العصر ومنجزاته العلمية ، فتبنى الدعوة إلى أن نقبل على هضم هذا الفكر الجديد ، ونعرف أدواته ومناهجه ونظرياته ، فنكون بذلك مشاركين في حضارة عصرنا ، غير عابئين بما كان في ماضينا الفكري ، لأن الماضي مضي وانتهى ، ولم يعد صالحاً لنواجه به ما في العصر الحالي من تقدم فكرى وعلمي وتقنى في مختلف المجالات .

الفريق الثالث : يتلخص موقف في أن طريقنا إلى صياغة فلسفة عربية معاصرة يكمن في محاولة صياغة ثقافة عربية جديدة فيها علم الغرب وتقدمه والتقني ، وفيها قيم التراث العربي في آن واحد

ويعتبر الدكتور زكى نجيب محمود من أبرز ممثلي الاتجاه التوفيقي منذ كتابه تجديد الفكر العربي ، حيث لعبت التحولات الفكرية دوراً كبيراً في بلورة مشروعه النهضوي من خلال الرؤية الدينية في حياته وهو شاب برزت في صورة مقالات تمس جوانب كثيرة من الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية ، والتي كانت موجهة إلى المجتمع المصري بصفة خاصة وإلى المجتمع العربي بصفة عامة ، لتعالج الأفكار التي كانت سائدة إبان تلك الفترة ، ثم تأتى مرحلة دراسته في لندن ، وتعد المرحلة الأهم في حياته الفكرية ، وذلك لتبنيه خلالها الوضعية المنطقية ، وفى هذه المرحلة لم يكن زكى نجيب محمود قد أتيحت له – في معظم أعوامه الماضية _ فرصة طويلة الأمد تمكنه من مطالعة صحائف التراث العربي على مهل (٣)

ثم تأتى المرحلة الفارقة في أعوامه الأخيرة أخذته فيها صحوة قلقة ليوجه جل اهتمامه إلى فحص الفكر العربي ، ونقد مقولاته نقداً تحليلياً صارماً ، والحديث عن التراث في هذه المرحلة ينال عناية كبيرة من الدكتور زكى نجيب محمود ، ويتمدد في مؤلفاته ، باعتباره نافذة معرفية أراد يستفيد منها غيره ، حيث يرى أن التراث" عالم ضخم مداه مئات الملايين من الصفحات

المكتوبة ، مضافاً إليها ما لا سعة لأحد في إحصائه من الأفكار والعادات والمبادئ والمأثورات (٤) .

كما يطلق عليه شروح الدين ، ونظم الشعر ، وإرسال الحكمة والشجاعة في القتال وإكرام الضيف ، وما إلى هذه الجوانب من حياة أسلافنا (٥) .

ومن خلال هذا الفهم لتعريفه للتراث يتضح أنه ليس محدداً ، وذلك لأنه جامع بين مذاهب الفكر الإنسانى على تنوعها ، وتكرر في أدبياته عبارة " عالم فسيح الجنبات" ، ثم يضيف إلى التعريف ما يوضحه فيذكر أن التراث عالم فسيح الجنبات ، كثير الأبعاد عميق الأغوار ، منه أصول الدين ، ومنه مذاهب الفقهاء ، ومنه الشـعر والنثر

الأدبي ، ومنه الفلسفة ، وكتب المتصوفة ، ومنه علوم اللغة بل فيه العلوم بكل أنواعها (٦)

وواضح أن الحديث عن التراث بهذا المعنى يمكن أن ينصب على عمل العقل دون سواه ، لأن عمل العقل هو الذى يدور فيه أصول الدين ومذاهب الفقهاء وغيرها .

ثم هو يقسم التراث إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول : التراث السلوكي : وهو ما يتعلق بالسلوكيات والصفات الخلقية الحميدة التي ينبغي على الإنسان أن يتميز بها (٧) ، وهذا القسم له ميزة عند زكى نجيب محمود لأنه مما خلفه الأجداد ، ولذا فهو يوليه كثيراً من العناية .

القسم الثانى : التراث المتنقل : ومعناه :أن الأجداد كانوا إذا ما وفدت إليهم صورة من حضارة جديدة لم يلبثوا طويلاً حتى أضافوا عليها شخصيتهم المستقلة ، ونقحوا (٨) وهذبوا مما وضعهم في موقف القابل للحضارة الأخرى الوافدة ، وسرعان ما يتفوقوا فيها وضعهم في مكان الريادة (٩) .

القسم الثالث : ما يتعلق بالأصول الإسلامية ، ومعناه أن كثيراً من المبادئ والمعارف والأصول الإسلامية صارت تتردد على ألسنة الناس بل صارت جزءاً من حياتهم ، فزكى نجيب محمود لا يرى مانعاً من وضعها كقسم متميز عن غيره نظراً لقيامه على الأصول الإسلامية .

أما عن كيفية دراسته للتراث نجد أن زكى نجيب محمود اتبع منهج معين خاص به في فهم وقراءة التراث العربي ، تتبع من خـــلاله تطور الفـكر الإسلامي ، وبدأ هذا التطور بالتدرج شيئاً فشيئاً ، هذا الطور هو تطور العقل

الإسلامـي مـــنذ عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم بدأ يأخذ أشكالاً أكثر تطوراً من ناحية التفكير العقلى (١٠).

ومن المدهش أن هذه المرحلة الفارقة قد مرت به وهو في أنضج سنوات عمره وتمثلت له فيما يلى : " إن مشكلة المشكلات في الحياة الثقافية الراهنة ليست هي كم أخذنا من ثقافات الغرب ، وكم ينبغي أن نزيد منها ؟ وإنما المشكلة الحقيقية هي كيف نوائم بين ذلك الفكر الوفد (الذى بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه) وبين تراثنا (الذى بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها) ؟

ومن المحال بالطبع أن يكون الحل هو وضع الوافد والتراث في تجاور ، بحيث نشير بأصابعنا إلى رفوفنا ، ونقول هذا هو شكسبير قائم إلى جوار أبى العلاء (١١) .

كيفية حل هذا الإشكال

يؤكد زكى نجيب محمود على أنه إذا كان الإشكال الفلسفي الذى واجه أسلافنا من العرب المسلمين الأقدمين هو كيف يوفقون بين أحكام الشريعة ومنطق العقل (١٢)، فإن الإشكال الفلسفي الجديد هو كيف نوفق بين التقدم العلمي وبين إنسانية الإنسان ؟

إن هذا الإشكال الفلسفي الجديد – في نظر د. زكى نجيب محمود – لا يواجه العرب وحدهم بل يواجه صانعوا الحضارة الــغربية أنفسهم ؛ فلقــد فشل الغـربيون وهــم صانعوا العلم الحديث في إقامة اللقاء الأمثل بين " العلم "وتقدمه ، وبين " الإنسان" ومطالبه الروحية : ففي الوقت الذى تمكنوا فيه من تحقيق أعلى درجات التقدم العلمي بتقنيات جديدة ومبتكرة ، كادت هذه التقنيات نفسها أن تقضى على إنسانية الإنسان ، وتجعله مجرد عبد لمال يكسبه أو علم يحصل عليه ، أو شهرة يبحث عن إرضائها دون أن تترك له فسحة من الوقت ليتأمل فيها نفسه وحياته وعلاقاته بالآخرين وبالكون الذى يعيش فيه ، دون أن تترك له فرصة للإيمان بمعتقدات دينية سليمة ، وبقيم أخلاقية سامية (١٣)

مادام هناك إشكال مفترض بين الأصالة والمعاصرة فكيف استطاع زكى نجيب محمود أن يقدم لها الحلول الواقعية ،فانتهج منهجاً للإستفادة من التراث ، منهجاً يساعدنا على النهضة العربية المنشودة ، والذى من خلاله نحافظ على تراثنا من جهة ، ونسير في ركب الحضارة المعاصرة من جهة أخرى ، ولذلك يطرح زكى نجيب محمود سؤالاً قحواه " ما الذى نأخذه وما الذى نتركه من القيم التي انبثت فيما خلف لنا الأقدمون "(١٤). وبالتالي فإن زكى نجيب محمود يرى أن في تراثنا ما هو صالح لنا وما هو غير ذلك .

حيث أبان أن المشكل الرئيسي في الثقافة العربية أنها ‘‘ثقــافة لفظ’’ ولا بد من تحــويلها إلى ‘‘ثقافة علم وصناعة’’

وأن الإهتمام بتراثنا بغية المحافظة على هويتنا لا تكمن في وجود الكتب المحتوية على هذا التراث وإنما الأمثل هو أن تتحول عن طريق ثقافاتنا إلى وجهة نظر حية تدفع صاحبها في مسارب الحياة اليومية العملية، سيما وأن كل خطوة يخطوها الإنسان تكمن وراءها خلفية فكرية استمدها من التقاليد بالتربية أو من الدراسة بالتعلم أو إستمدها من التأمل النظري الذي يتحول إلى عمل تطبيقي(١٥) .

و يقرر الدكتور / عبدالحميد درويش النساج أن زكى نجيب محمود اتبع أسلوباً ومنهجاً علمياً خاصاً في دراسته للـــتراث يعتمد على مبدأ الجمع أو التوفيق ، وليس الوحدة أو الاتحاد ، ويؤكد أن زكى نجيب محمود لهذه الغاية استبعد المنهج التاريخي الذى يقوم على اتباع اللواحق بالسوابق ، والنتائج بالمقدمات (١٦)

والجمع بين الأصالة والمعاصرة كما يذكر الدكتور عبدالحميد درويش النساج أن زكى نجيب محمود حاول إثبات أن الجمع بين الأصالة والمعاصرة ليس بالشيئ المستحيل أو الصعب خاصة إذا نجحنا في الجمع بين مميزات القديم والحديث (١٧) ، وكانت لدينا القدرة على مواجهة سلبيات القديم والحديث معاً (١٨).

وبناء على ما سلف لابد أن يكون هناك غاية ربطها الدكتور عبدالحميد درويش بالقدرة على مواجهة سلبيات القديم والحديث معاً ، ثم نبه إلى المنهج الذى يجب استعماله ، فذكر أنه لا يتمكن المـــفكر من ذلك إلا إذا تبنى

الاتجاه المعتدل المستنير (١٩) الذى يستطيع التوفيق بين ثنائية القديم والجديد (٢٠) .

بل إن د/ عبدالحميد درويش وهو في سبيل عرضه لآراء زكى نجيب محمود ينتهى إلى نتيجة مفادها ضرورة الأخذ بمصابيح التنوير التي يجب أن تستمد زينتها من الداخل ، وليس من الخارج ، وأن ثمار التجديد لا تنضج إلا بقدر ثبات جذورها في التربة التي تنبت فيها (٢١).

والواضح أن مسألة الجمع بين الأصالة والمعاصرة كانت تشغل عقل زكى نجيب محمود إلى مسافة بعيدة ، وذلك لأن الأصالة الثقافية ضاربة بجذورها إلى المقومات الأولية التي جعلت من العربي عربياً ، وبين المعاصرة التي تجعله جزءاً من زماننا بنشاطه الفكري هي قطب الرحى وأم المشكلات في حياة زكى نجيب محمود حتى إنه يقول عنها إنها أصبحت القضية التي يصح أن نقول حيالها أن أكون أو لا أكون (٢٢).

لكن ما هي المشكلة المتعلقة بالأصالة والمعاصرة ؟ ، والجواب إن هذه الإشكالية ترسم صوراً متعددة أبرزها عند الأسلاف الأقدمين ، فالأصالة عندهم هي طريقة اللقاء بين أحكام الشريعة ومنطق العقل ، ثم أصبح هذا الإشكال عندنا هو طريقة اللقاء بين العلم والإنسان ، بين العقل والوجدان (٢٣).

وهى قضية أسماها قضية المسلم الجديد أي المسلم الذي يؤدى فرائض دينه غير أنه يسعى في ذات الوقت إلى قوة العلم في أحدث صوره مواكبة للعصر الذي يعيش فيه. ولا شك أن هذا التوجه يتوافق ودعوة ديننا الإسلامي الحنيف الذي يستحث الإنسان للسعي الدؤوب في البحث والتقصي واستقراء آيات الكون التي خلقها الله سبحانه وتعالى، ثم ليندفع صوب التغير والتطور والارتقاء وهى عملية ترتبط كل الارتباط بعجلة الحياة ودورتها المتصلة. وبما أن العلوم والثقافات تتجدد عبر الزمن فالأمر يحتم على الإنسان مواكبة تطوراتها وتجددها وذلك عبر

البحث المستمر لإدراك بعض هذا التقدم المعلوماتي والتقني عملاً بقول رسولنا الكريم ‘‘أطلبوا العلم ولو في الصين’’ وقوله ‘‘الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها’’ . ثمة إشارة هنا، وهى أن إشكالية الفكر العربي المعاصر تتمثل في مشكلة الاختيار بين النموذج الغربي في السياسة والاقتصاد والعلوم والثقافة وبين ‘‘التراث’’ باعتباره يقدم نموذجاً بديلاً وأصيلاً يغطي جميع مناحي الحياة المعاصرة (٢٤) .

كما يذكر الدكتور إمام عبدالفتاح إمام أن زكى نجيب محمود قدم صيغة مقترحة لحل تلك الإشكالية " وهى الصيغة التي تجمع بين العقل والوجدان بحيث يكون واضحاً لدينا أن مجال العقل والوجدان يشمل جميع الظواهر الطبيعية والإجتماعية التي تحتاج إلى تفسير علمي بالمعنى الواسع الذى يسوى بين البشر أجمعين (٢٥) ، والجمع بين الأصالة والمعاصرة يكون من خلال العقلانية التجريبية والوضعية

المنطقية ؛ لأن كلاهما يسير وفق معيار العلم ، فهذا هو المنهج ، وهذا هو الحل الذى ارتآه الدكتور زكى نجيب محمود وسجله في مقولته تحت عنوان : (الفلسفة شيئ والدين شيئاً آخر) من كتابه : قيم من التراث (٢٦) .

إن فكرة الثنائية التي اعتبرها كي نجيب محمود جوهر ثقافتنا العربية الإسلامية يمكن أن تكون الأساس للفلسفة العربية المعاصرة التي تمكننا من تجاوز إشكال الأصالة والمعاصرة الذى يطفو على السطح كلما فكرنا في كيفية مواجهة ذلك النموذج الحضاري الغربي، حيث إن هذا الإشكال سيصبح في هذه الحالة بغير مضمون ؛ فإذا كنا نواجه حضارة سر تفوقها هو التقدم العلمي التقني، وإتاحة الحرية الكاملة أمام العقل الإنسانى للإبداع والابتكار في كل المجالات ، فإن حضارتنا العربية الإسلامية وهى تراثنا الذى نستند إليه في تحديد هويتنا وشخصيتنا المستقلة كانت الأسبق في الدعوة إلى ذلك والمشاركة في صنعه ، كما أن ديننا الحنيف لا يعارض مثل هذا التقدم ، ولا يقف عائقاً أمام حرية العقل في الإبداع كما يتصور دعاة المعاصرة والنقل عن الغرب (٢٧) .

وعلى هذا فلا مانع يمنعنا من أن نشارك في حضارة العصر والتفاعل معها تفاعلاً إيجابياً سواء بالأخذ والعطاء .

ثانيا: موقف محمود زقزوق من التراث والمعاصرة

يطلق مفهوم «التراث» على مجموع الآراء والأنماط والعادات الحضارية التي تنتقل من جيل إلى جيل، ومن ذلك: التراث العلمي العربي، والتراث الإسلامي، والتراث الثقافي، والتراث الشعبي، وغير ذلك من أشكال تراثية أخري وعلى الرغم من أن التراث يعد من خصائص الإنسان الأساسية التي يتميز بها عن بقية المخلوقات، فإنه ليس شيئا مغروسا في فطرته، وليست له أي صلة بغرائزه، وإنما الإنسان يتعلمه، وهو قادر على أن يتعلمه أو يتعرف عليه ويدرسه، معتمدا في ذلك على ما لديه من لغة، وذلك فضلاً عن أنه كائن اجتماعي.

ويقرر محمود زقزوق أنه ما من أمة إلا لها تاريخ يشتمل على مجموع تجاربها وخبراتها وانجازاتها واحتياجاتها على جميع المستويات ، ويحاول محمود زقزوق أن يؤصل لفكره حول المسألة فيذكر أن التواريخ لكل أمة ما هي إلا حكاية لما يدور في هذه الجوانب كل على حده ثم تجتمع كلها لتكون ما يطلق اسم التراث .

كما يرى أن التراث هو ميراث الأمة الذى لا يجوز أن يبدد ، ويجب المحافظة عليه ، ثم ينعى باللائمة على من يهملون التراث أو يبدونه فيقرر أن الأمة التي تبدد تراثها لا تستحق الحياة ، ومصيرها النسيان تماماً ، قياساً على الشخص الذى يرث عن أهله ثم يبدده فيكون مصيره الذل والهوان يقول محمود زقزوق : أن الأمة التي تبدد ميراثها لا تستحق الحياة ومصيرها النسيان تماماً مثل أي فرد يبد الميراث الذى ورثه عن آبائه وأجداده فيكون مصيره الخزي والعار (٢٨).

ومن هنا فلا يمكن التخلي عن التراث ، ولكن يجب تنميته ، فالتراث كالميراث ، فمن يرمى تراثه يوصف بالمجنون ، ومن يبدده أحمق، ومن ينميه ويحافظ عليه هو العاقل .

ويرى محمود زقزوق أن الإنسان – من حيث هو إنسان – لا يمكن فصله عن ماضيه الثقافي وتراثه الحضاري والديني، ولعل صلة الإنسان المسلم بتراثه تختلف عن صلة غير المسلم بتراثه لارتباط التراث الإسلامي بالدين ارتباطا وثيقاً، ولكن هذا لا يعنى أن هذا الماضي التراثي، بما فيه من جوانب إيجابية وأخرى سلبية – يكون بالنسبة للمسلم قيداً يشل حركته، ويجمد به عن السير قدما إلى الأمام، والتفاعل المثمر مع عالمه المتغير، وإنما هذا الماضي التراثي يكون بمثابة مؤشر يوجه الشخصية الفكرية لأمة من الأمم على وجه العموم.

ويؤكد محمود زقزوق أن الإنسان يتعلم من تراثه، وبذلك تتكيف شخصيته، وبهذه الشخصية تتميز أمة عن أمة. والأمة العربية الإسلامية حين تريد في أيامنا هذه أن تستعيد شخصيتها الاستقلالية في نظرتها إلى الأمور وإلى الحياة بوجه عام، فإنه لا مفر أمامها من الاسترشاد بماضيها وتراثها، تبحث فيه عن عوامل النهوض لتنهض، وأسباب التقدم لتتقدم، وعناصر الاستقلال

لتكون لها شخصيتها المستقلة، ولكن ذلك كله لا يجوز أن يحدث دون مراعاة لمتغيرات العصر، وما يستجد فيه من تطورات إيجابية في جميع المجالات.

ويذكر محمود زقزوق أن المسلمين في محاولتهم النهوض واللحاق بركب العصر في حاجة ماسة إلى التعرف على

منجزات العصر بعيون ناقدة لا تقتصر فقط على نقد ما لدى الآخـــرين إنـــما ينسحب على تراثنا وهذا يؤدى إلى ضرورة تـمكن العقل الإنسانى من أداء دوره الفاعل في مسيرتنا الحضارية ، ومراجعة تراثنا مراجعة دقيقة بهدف وصل ما انـــقطع وإزالـــة أسباب الجفوة المصطنعة ، ثم يذكر أن المسلمين في هذه المسألة فريقان :

الفريق الأول : أصحاب المظهر: وهم الذين يتمسكون بالتراث إيجابياته وسلبياته من غير نظر فيها ، ويغلق الباب أمام أي شكل من أشكال المعاصرة ، إذ يرى أن المعاصرة هي غطاء المؤامرة ضد التراث ومحاولة ماكرة لمحو الخصائص الحضارية للأمة الإسلامية (٢٩) ، ومن أجل ذلك يجب التشبث بالتراث وحمايته من أخطار المعاصرة التي تشكل تهديداً حقيقياً للتراث (٣٠).

صحيح أن هذا الفريق له وجود في واقعنا المعاصر ، ويقوم أمره على التطرف والمبالغة ، وليس من الصواب التمسك به ؛ لأن كل تقاسم حضاري لابد أن يجمع بين التراث والمعاصرة على ناحية تكون مقبولة والحكم فيها لصحة الواقع وصدق النتائج وبيان وجوه الاستفادة ، ويمكن اعتبار الفريق الأول وتسميته فريق النصيين .

ويذكر أن تعامل المسلمون في الأعم الأغلب مع تراثهم- وبخاصة التراث العلمي المتعلق بالعلوم الإسلامية – على نحو غير سليم، فبدلا من النظر إلى هذا التراث على أنه منجم يشتمل على الكثير من الجواهر واللآلئ، وفى حاجة إلى عقليات ماهرة للغوص فيه للبحث عن هذه الجواهر التي يشتمل عليها، نظرنا إليه على أنه ملجأ نلجأ إليه لنحتمي به بحجة الحفاظ على هويتنا، ولكن دون أن نضيف إليه جديدًا، أو نستخرج منه ما يفيدنا في مسيرتنا الحضارية.

لقد أصبحنا ندور حول التراث لتقديسه كما ندور حول الكعبة، وإذا كنا لا نضيف إلى الكعبة جديدًا بالطواف حولها، فإننا أيضًا لا نضيف جديدا إلى تراثنا الذى قمنا بتحنيطه خوفًا عليه من الضياع وحفاظا على هوية الأمة، ونعتقد أننا بذلك قد أدينا واجبنا نحو التراث، وأصبح الجمود على التراث سيد الموقف، أما تجديد التراث أو الإضافة إليه فهذا أمر غير مرغوب فيه، فالسابقون قد قالوا كل شيئ، ولم يترك الأول للآخر شيئًا ولم يعد فى الإمكان أبدع مما كان، ولم يعد هناك أيضًا مجال لمستزيد، وبخاصة في مجال العلوم الإسلامية.(٣١) .

ويؤكد محمود زقزوق على أنه لا يجوز التعامل مع التراث على أنه أساس الدين، وإحاطته بهالة من التقديس، كما أنه لا يجوز بحال من الأحوال القطيعة مع التراث .

ثم يشير إلى أن التراث جهد بشرى يخطئ ويصيب، ولا يجوز الخلط – بأي حال من الأحوال – بين التراث والقرآن الكريم والسنة النبوية المقطوع بصحتهما، فهذان هما الأصلان اللذان يقوم عليهما الإسلام، ولا يجوز الخلط بينـــهما، التراث الذى هو جهد بشرى خالص، ومن هنا فإنهما لا يندرجان تحت مفهوم التراث بأي حال من الأحوال، ولكن هناك من يخلط بينهما وبين التراث، سواء أكان ذلك بقصد أم دون قصد.

ويستدل الدكتور محمود زقزوق على ذلك بما ذهب إليه الإمام محمد عبده من عدم رضاه على فقهاء عصره في تعاملهم مع التراث الفقهي فيقول : وقد سبق أن عاب الشيخ محمد عبده على فقهاء عصره تعاملهم مع التراث الفقهي على نحو يضفى عليه عصمة مرفوضة، وأنه الدين الذى يجب العمل به، وفى ذلك يقول: "لقد جعل الفقهاء كتبهم هذه – على علاتها — أساس الدين، ولم يخجلوا من قولهم: إنه يجب العمل بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة، فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث، وانحصرت أنظارهم في كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلاف في الآراء والركاكة." (٣٢)

وغير خاف على أي باحث جاد أن التراث في مجال العلوم الإسلامية بصفة خاصة يشتمل على إيجابيات كثيرة، لكنه في الوقت نفسه يشتمل أيضًا على كثير من السلبيات ، وواجبنا أن نتلافى السلبيات، ونعمل على تنمية الإيجابيات، ونبحث في الوقت نفسه عن الحلول الملائمة لمشكلات عصرنا حتى لا نكون منفصلين عن الواقع .

ويستشهد محمود زقزوق أيضاً بموقف للإمام الشافعي عندما جاء إلى مصر عائداً من العراق فيقول : "وحسبنا أن نشير في هذا المقام إلى الإمام الشافعي – رضى الله عنه– فعندما جاء إلى مصر مقبلا من العراق واستقر به المقام فيها، بدأ بإعادة النظر في آرائه التي كان يقول بها في العراق، تجاوبا مع أعراف وظروف جديدة وجدها في مصر، فمثل هذه المرونة في الفكر في عقلية الإمام الشافعي وغيره تعد من الإيجابيات التي لا بد أن نضعها أمام أعيننا وعقولنا، لأنها تدلنا على حركية الفكر الإسلامي المتمثلة في مبدأ الاجتهاد الذى فتح الرسول– عليه الصلاة والسلام – بابه واسعًا ليظل مفتوحا إلى قيام الساعة، لملاحقة أي تطورات جديدة قد تطرأ على حياة الناس وتعاملاتهم في مختلف الأمور الحياتية" (٣٣)

الفريق الثاني : فريق العقليين :

وهو الذى تبنى القطيعة بين التراث والمعاصرة من حيث إنه يرفض التراث رفضاً تاماً ، ويرى أنه سبب تخلف الإمة ولابد من التخلص منه ، بينما المعاصرة هي طوق النجاة وسبيلها الأوحد بالنسبة للتقدم والرقى ، وبقدر ما تهمل قضايا التراث بقدر ما تعلو قضايا المعاصرة (٣٤)

وهنا يرد سؤالاً وهو كيف تعامل المسلمون في مرحلة البناء للحضارة الإسلامية مع تراث الآخرين؟.

لقد أشار محمود زقزوق إلى أن الأمة الإسلامية في مرحلة بناء حضارتها، كانت منفتحة على تراث الآخرين للتعرف عليه والاستفادة من العناصر الإيجابية التي يشتمل عليها، وقد ساعد ذلك بطبيعة الحال على بناء الحضارة الإسلامية، وقد شجع على ذلك بصفة خاصة ما اشتمل عليه القرآن الكريم والسنة من دعوة صريحة إلى عمارة

الأرض، أي صنع الحضارة فيها، والحض على طلب العلم، والارتفاع به إلى مرتبة الفريضة، وكذلك الإشارات المتكررة في القرآن الكريم إلى ضرورة السير في الأرض من أجل التعرف على تاريخ السابقين من الأمم للاعتبار بما حدث لها، والأسباب التي أدت إلى ذلك، واستخلاص الدروس والعبر حيت لا نكرر أخطاء السابقين، ويؤكد فيلسوفنا الكبير ابن رشد أن التعرف على

ما لدى الآخرين من علم واجب شرعًا، ثم يقول: «ننظر في الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم، وسررنا به، وشكرنا لهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرنا منه، وعذرناهم».

والحق أن محمود زقزوق بعد أن عرض كلا من الفريقين أثبت رأيه وأدان كلاً منهما فيقول : نعتقد أن كلاً من هذين الفريقين غير محق فيما ذهب إليه من تطرف ومبالغة في وجهة النظر التي يتبناها أما لماذا ؟ فلأن التراث ليس خيراً كله وليس شر كله، ومن أجل ذلك فإن علينا أن ننقى تراثنا من الشوائب التي تضر ولا تنفع ، ولا ضير علينا إذا نظرنا في تراثنا نظرة نقدية تبقى على كل ما هو إيجابي في التراث وتنفى عنه كل

السلبيات حينئذ نرى التراث نفسه يدعو إلي المعاصرة الإيجابية (٣٥)

ويخلص محمود زقزوق إلى أن تنقية التراث مما هو فيه واللجوء للمعاصرة الإيجابية " هو ذاته العولمة ، وبالتالي فالعولمة عنده هي المعاصرة الإيجابية البعيدة كل البعد عن الاساطير والخرافات ، ويؤكد أن الأخرى المعاصرة ليست خيراً كلها ولا شر كلها ، وإنما الواجب أن ننظر في كل ما يرد نظرة نقدية نأخذ منها ما ينفعنا ، ونرفض منها ما لا يلائمنا ، وما نرى أنه سيعود علينا بآثار سلبية .

إن محمود زقزوق يتمثل نصوص الدين في عقله ويتمسك بمنهج ابن رشد من ناحية تطبيقه ، وهو استخدام النظرة النقدية في التراث من جانب وفى العولمة من جانب آخر ثم ينتهى إلى القول بأن أمتنا الإسلامية في أشد الحاجة إلى هذا التواصل المبنى على الوضوح وعلى النظرة النقدية البناءة (٣٧)

الهوامش

(١) زكى نجيب محمود : تجديد الفكر العربى ، دار الشروق بالقاهرة ، الطبعة التاسعة ، ١٩٩٣ ، ص٩

(٢) مصطفى النشار : ضد العولمة ،دار قباء للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م ، ٢١٤

(٣)كان د .زكى نجيب محمود واحداً ضمن المثقفين العرب الذين فتحت عيونهم على الفكر الأوروبى – الجديد منه والقديم– حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنسانى الذى لا فكر سواه لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه . مقدمة كتاب تجديد الفكر العربى ، والذى تم نشره عام ١٩٧١ .

(٤) زكى نجيب محمود : عن الحرية أتحدث ، ص١١٤

(٥) زكى نجيب محمود : تجديد الفكر العربى ، ص١٩ .

(٦) زكى نجيب محمود : عن الحرية أتحدث ، ص١١٤

(٧)ا زكى نجيب محمود : عربى بين ثقافتين ، ص١٩٢ .

(٨)زكى نجيب محمود : المصدر السابق، نفس الصفحة .

(٩)هذا القسم المتعلق بأصول الدين ليس تراثاً، لأن التراث الإنسانى فكر أصحابه ، بينما نصوص الدين لغة الوحى فتنزيل من حكيم حميد

(١٠)أسامه على حسن الموسى : المفارقات المنهجية في فكر زكى نجيب محمود ، مطبوعات جامعة الكويت ، ط١ ، ١٩٩٧ ، ص١٦٥

(١١) حامد طاهر : التراث والمعاصرة عند زكى نجيب محمود قراءة في تجديد الفكر العربى ، ص٣٨

(١٢) مصطفى النشار : ضد العولمة ، ص٢١٨

(١٣) مصطفى النشار ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(١٤) زكى نجيب محمود : قصة عقل ، ص١٨٩(١٥) عبدالحميد درويش النساج ،: الفكر العربي المعاصر ، ص٤٣ / مكتبة وهبه ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م

(١٦) هذا الشرط مقترن بالمقدمتين ، إذا عنى بهما الجمع بين الأصالة والمعاصرة ، واستبعاد المستحيل.

(١٧) عبدالحميد درويش النساج : الفكر العربي لمعاصر ، ص٨٢

(١٨)المقصود بالاتجاه المعتدل المستنير عند زكى نجيب محمود يقوم على حقائق أساسية متبعاً الأسلوب العلمي وانتحال الفلسفة الوضعية في التخطيط لثقافة المستقبل .

(١٩) عبدالحميد درويش النساج : الفكر العربي المعاصر ، ص ٤٥

(٢٠) عبدالحميد درويش النساج ، : المرجع السابق ، ص٤٥ .

(٢١) زكي نجيب محمود : قصة عقل ص١٨٦

(٢٢)زكي نجيب محمود / تجديد الفكر العربي ، ص٣٥

(٢٣) عبدالحميد درويش النساج : الفكر العربي لمعاصر ، ص٨٢

(٢٤)صحيفة الحياة اللندنية ، العدد ١٠٧٠٧، ص١٦، ١٩٩٢ في هذا المقال كان الدكتور / زكي نجيب محمود يستعرض حياته الفكرية من أولها إلى آخرها

(٢٥) إمام عبدالفتاح إمام ، رحلة في فكر زكي نجيب محمود ، طبعة المجلس الأعلى للثقافة ، ص١٥٥

(٢٦)عبدالحميد درويش النساج : الفلسفة العربية ، ص ٤٧ .

(٢٧)مصطفى النشار : ضد العولمة ، ص٢٢٠ .

(٢٨)محمود زقزوق : الفكر الديني وقضايا العصر ، ص١٥٥

(٢٩) الخصائص الحضارية للأمة الإسلامية متنوعة تدور أغلبها في المصادر الإسلامية في الكتاب والسنة وما يتعلق بهما على ناحية صحيحة ، راجع لتوفيق محمد سبع : القيم الحضارية في القرآن ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٣٠) محمود حمدي زقزوق : الفكر الديني وقضايا العصر ، ص١٥٨

(٣١) محمود زقزوق : المصدر السابق ، ص١٥٨.

(٣٢) محمود زقزوق : الإسلام والحضارة وتحديات العصر ، ضمن مجموعة الأعمال الكاملة ، ص١٥٧

(٣٣) محمود زقزوق : المصدر السابق ، ص١٦٠

(٣٤) محمود حمدي زقزوق : الفكر الديني وقضايا العصر ، ص١٥٨ .

(٣٥) محمود زقزوق : المصدر السابق ، ص١٥٨.

المصادر والمراجع

١-زكى نجيب محمود : عن الحرية أتحدث ، طبعة دار الشروق الثالثة ، ١٩٨٩م .

٢- زكى نجيب محمود : تجديد الفكر العربي ،طبعة دار الشروق ،١٩٨٧م .

٣- زكى نجيب محمود : حصاد السنين ، طبعة دار الشروق ، ١٩٩١م .

٤- زكى نجيب محمود : عربي بين ثقافتين ، دار الشروق ، ط الأولى ، ١٩٩٠ م .

٥- زكى نجيب محمود عن الحرية أتحدث ، دار الشروق ، ط الثالثة ، ١٩٨٩م .

٦- محمود زقزوق : الفكر الديني وقضايا العصر ،مكتبة الأسرة ، ٢٠١٢م .

٧- محمود زقزوق : الإسلام والحضارة وتحديات العصر ، ضمن مجموعة الأعمال الكاملة

٨- مصطفى النشار : ضد العولمة ،دار قباء للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م

٩- أسامه على حسن الموسى : المفارقات المنهجية في فكر زكى نجيب محمود ، مطبوعات جامعة الكويت ، ط١ ، ١٩٩٧ .

١٠ - حامد طاهر : التراث والمعاصرة عند زكى نجيب محمود قراءة في تجديد الفكر العربي .

١١- عبدالحميد درويش النساج ،: الفكر العربي المعاصر ، مكتبة وهبه ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٩هـ

١٢- إمام عبدالفتاح إمام ، رحلة في فكر زكى نجيب محمود ، طبعة المجلس الأعلى للثقافة

١٣- توفيق محمد سبع : القيم الحضارية في القرآن ،طبعة دار المار بالقاهرة